التحول في شعر حسان بن ثابت من حيث البنية والموضوع – قراءة في نماذج من مديحه وهجائه

أ.د. أيهم عباس القيسي
كلية الآداب – جامعة بغداد

المقدمــة :

يلاحظ الدارس لصفحات التاريخ العربي قبل الإسلام ، أن الحياة العربيـة تميزت بطابعها الجاف الذي ساهمت عوامل عديدة على بلورتـه ، إذ أن جـدب الأرض ، وقلة مصادر المياه ، فضلاً عن عوامل أخرى ساهمت إلى حد مـا أن تبقى حالة الصراع قائمة بين العرب . غير أن هذا الصراع وإن كان في جانـب كبير منه يستنزف الطاقات والموارد ، فإنه في الجانب الآخر قد أرسـى قواعـد راسخة للسلوك والأخلاق ، وعزز قيم البطولة والرجولة ، حتى أضحت هذه القيم معلماً بارزاً وشاهداً كبيراً يدلل على ما وصل إليه إنسان ذلك العصر على صعيد البناء القيمي والأخلاقي .

وجاء الإسلام بنوره الغامر ، ومبادئه السامية ليضيف إلى قـيم العـرب وأخلاقياتهم قيماً جديدة ، ويضفي على حياتهم معاني الإيمان والعقيـدة . فكـان الإسلام حدثاً عظيماً غيّر مجرى الحياة . فبعد أن كانت غاية كـل شـيء غيـر محددة ، والطريق إليها غير متعارف عليه ، أصبحت الغاية واحدة ، والطريـق إليها واضحاً وجلياً .

وكان الفرق واضحاً وكبيراً بين هاتين الحياتين ، وإن كانت كـل واحـدة منهما ثرية بشتى أشكال المعرفة ، ولربما سيعيننا الشاعر حسان بن ثابت فـي الكشف عن الفرق بين هذين النمطين من الحياة ؛ لأنه عاش ردحاً من حياته قبل

الإسلام ، وأمتد به العمر ليشهد نهاية عصر الرسالة ، فكان شعره بهذا الوصف سجلاً لهذا التحول الذي أصاب الشعر ، ووثيقة فنية للتغير الحاصل في موضوعات الشعر وبنيته .

إن دراسة شعر حسان في ضوء هذا التصور تنبع من التضارب الحاصل في الدراسات التي خاضت في شعره وشخصيته ، بالرغم من اتفاق النقاد على تلقيبه بأشعر أهل المدر(١) ، وإنه شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام(٢) . فإن بعض النقاد كان لهم تصور آخر ، ومن هؤلاء الأصمعي الذي يرى أن (الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان ، وهذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره)(٣) .

إن الدراسة المتأنية لشعر هذا الشاعر ، تضع أيدينا على حقائق كثيرة حاول بعض النقاد والدارسين أن يتجاهلها قاصدين أو غير قاصدين ، وتكشف عن قيمة الجهد الإبداعي الذي نهض به شاعر الرسول (ﷺ) ، وهي بلا شك محاولة ميدانية ستساهم في إلقاء الضوء على مواطن القوة والضعف في شعر حسان ، وهل أصابه الفتور والضعف الذي ذكره الأصمعي ، أم أن شعره قد حافظ على مستواه الفني ، بل ربما أضاف إلى هذه المعاني التي تميز بها شعره معاني أخرى نشأت في ظل الدين الإسلامي الحنيف ، وعززتها مبادئه السامية .

وقد وجدت أن الوقوف عند غرضي المديح والهجاء يمكننا من معرفة التحول الذي طرأ على شعر حسان بن ثابت من حيث البنية والموضوع ، وهو يعيش أحداث الرسالة ويسجل وقائعها . ورأيت أن ابدأ بغرض المديح مختاراً نماذج من شعره الذي سبق إسلامه ، وأخرى نظمها بعد الإسلام ، ثم أحاول أن أجري موازنة بين الاثنين ، لتوضيح المستجدات التي طرأت على شعره .

أولاً ـ المديح :

قال حسان بن ثابت يمدح آل جفنة :

أسألت رسم الدارِ أم لم تَسْـــألِ　　بين الجوابي فالبضيعِ فحَومَـــلِ
فالمرج مرْجِ الصُفَّرينِ فجاسِـــمِ　　فديـــارِ سلْمى دُرَّساً لم تُحْلَـــلِ
ومـــن تعاقَبها الرياحُ دوارسٌ　　والمُدجنَاتُ من السِّمَاكِ الأعـزلِ
دارٌ لقـومٍ قـد أراهـمْ مَـرَّةً　　فوقَ الأعزّةِ عِزُّهـمْ لم يُنْقَـلِ
لله درُّ عصابةٍ نـادَمْتُهُـــمْ　　يومـــاً بجلّقَ في الزّمانِ الأوّلِ
يمشُونَ في الحُللِ المضاعفِ نسجُها　　مشيَ الجِمالِ إلى الجمالِ البُـزَّلِ
الضاربون الكبشَ يبْرقُ بيضُـــهُ　　ضرباً يطيحُ له بنـــانُ المفصلِ
والخالطونَ فقيرَهُمْ بغنيِّهـــمْ　　والمنْعمـون على الضَّعيفِ المُرملِ
أولاد جفنةَ حول قبرِ أبيهـــمِ　　قبر ابنِ ماريةَ الكريـمِ المُفْضِـلِ
يغشَوْنَ حتّى ما نهرُّ كلابُهُـــمْ　　لا يسألون عن السَّوادِ المُقْبِـــلِ
يَسْقونَ من وردَ البريصَ عليهـم　　بردى يصفقُ بالرحيقِ السَّلْسَـــلِ
يسقونَ ورياق الرَّحيقِ ولم تكُـنْ　　تُدعى ولائدُهُمْ لنقفِ الحنظـــلِ
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُـــمْ　　شُمُّ الأنوفِ من الطّـرازِ الأوّلِ[٤]

فقد بدأ حسان مديحه حسب التقاليد الفنية الموروثة التي اعتـاد عليهـا الشعراء العرب قبل الإسلام ، وذلك بالوقوف على الطلل والبكـاء علـى ديـار الحبيبة التي درستها الأيام ، ولم يبقى منها سوى بعض الآثار البالية .

حيث افتتح القصيدة بهذه التساؤلات التي أثارها عن الأمـاكن والمواقـع التي تحفّ بديار سلمى التي يجد صعوبة في التعرف عليها ، لأن حالها قد تغير، وصورتها قد انطمست ، بعد أن تعاقبت عليهـا الريـاح الـدوارس ، والغيـوم الممطرة ، والنجوم التي هي بمنزلة القمر . وهذا دليل واضح على طول المـدة التي قضاها بعيداً عن هذه الديار .

ويستمر الشاعر في الوقوف على تلك الأطلال ، التي أضحت جزءاً من حياته ، ولكنها وقفة سريعة ، ولمحة خاطفة لا تتناسب وأثر هذه الأطلال في نفسه ، لينتقل بعدها إلى موضوع القصيدة وهو المديح ، وربما كان السبب وراء وقفته القصيرة تلك هو ضيق المقام ، وطبيعة الظرف الذي نظمت فيه القصيدة ، فقد نظمها رداً سريعاً على استفزاز عمرو بن الحارث عندما كان عنده النابغة الذبياني ، وعلقمة بن عبدة ، وقد أستفزه بقوله : (وأنتَ واللهِ لا تُحسن أن تقول...)(٥) ، فجاء حسان بهذه القصيدة .

ولاشك أن ضيق المقام هو الذي أجبر حساناً على عدم الإطالة في الوقوف على الإطلال والدخول مباشرة إلى موضوعه . فيرى أن ممدوحيه هم ندماؤه وخلطاؤه ، فهو يعرفهم ، وطالما جالسهم ، فيصفهم بالأسياد الذين يرتدون أبهى الحلل ، ويتمتعون برجاحة العقل والحكمة ، ويتميزون بالقوة والشجاعة في مواجهة خصومهم . وهو لا ينسى في خضم هذا المديح والإطراء الإشارة إلى عدلهم مع اقتدارهم ، وقدرتهم على ردّ المظالم والمحافظة على الحقوق ، والحرام الضيف والمحتاج . فمنازلهم لا تخلو من الأضياف والطرّاق والعفاة ، حتى آنست كلابهم بكل من يقصد إليهم ، فلا تهرّ على أحد ، وهم في سعة لا يبالون بمن نزل بهم من الناس ، ولا يروعهم الجمع الكثير . فيسقون من يأتيهم ألذ الشراب وأعذب الماء ، ثم يستمر الشاعر في الثناء على ممدوحيه ووصفهم بكل ما يرفع من شأنهم إلى آخر القصيدة .

ولئن حاولنا أن نحصر الوجوه التي ميزت هذه القصيدة ، واستظهار المعاني الجاهلية التي اشتملت عليها ، لوجدناها تتلخص بما يأتي :

من حيث البناء ، فأن الشاعر لم يكثر من التنويع في الأساليب ، فأكثر من القص ومال إلى أسلوب الأستفهام في أول القصيدة فقط . ثم أن بناء القصيدة جاء على محورين أساسيين ، هما الوقوف على الإطلال ، ثم المديح

المباشر ، ولعل هذا ما حدّ من مقدرة الشاعر على الإطالة في القصيدة ، وإدخال معانٍ وأغراض أخرى فيها .

وقال يمدح جبلة بن الأيهم :

لمنْ الدّارُ أوحشتْ بمَعَانِ	بينَ أعلا اليرمُوكِ فالغمَّانِ
فالقُرَيّانِ منْ بلاسَ فداريّا	فسكّاءَ فالقُصُورِ الدَّواني
فقفا جاسمٍ فأوْديةِ الصُّفَّرِ	مغنى قبائلٍ وهجَانِ
تلكَ دارُ العزيزِ بعْدَ أنيسٍ	وحُلُولٍ عظيمةِ الأركانِ
ثَكلتْ أمُّهمْ وقدْ ثَكلتْهُمْ	يومَ حلّوا بحَارثِ الجَوْلانِ
قدْدَنا الفصْحُ فالولائدُ يتطِمنَ	سِرَاعاً أكِلَّةَ المرجانِ
يجتنينَ الجاديَّ في نُقبِ الرَّيْطِ	عليها مجاسِدُ الكتّانِ
لم يُعلِّلْنَ بالمغافِرِ والصَّمْغِ	ولا نقْفِ حنْظَلِ الشَّرْيانِ
ذاك مغْنّي من آلِ جفنَةَ في	الدَّهرِ وحقٌ تعَاقُب الأزمانِ
قد أراني هُناك حقَّ مكينٍ	عندَ ذي التّاجِ مجْلسي ومكاني(٦)

في هذه القصيدة التي تناول فيها حسان مدح آل جفنة ، ممثلين في شخص جبلة ، نلاحظ أن الشاعر في هذه القصيدة استخدم البناء نفسه الذي بنى عليه قصيدته السابقة ، حيث حصر مديحه في موضوعين أساسيين لا ثالث لهما، وهما وقوفه على ديار الممدوح ممثلة في قصوره المشيدة ، وهي غير تلك الديار التي عهدناها من قبل . ولكن الذي يبدو أن جو القصيدة لم يمنح الشاعر الفرصة الكافية للإطالة والاستهلال بالوقوف على الإطلال ، وذكر الحبيبة، وما إلى ذلك . وإنما باشر مديحه من دون أي مقدمات . أما الجزء الثاني من القصيدة فهو مديحه الشخصي الموجه لجبلة بن الأيهم وعائلته .

فقد بدأ القصيدة بذكر مواضع محددة هي (معان واليرموك والخمان) ، وهي مواضع باكناف دمشق اتخذها ملوك آل جفنة مقراً لهم ، ثم ظعنوا عنها.

ويستعيد حسان ذكرياته الجميلة ، وأيامه الهانئة من خلال استعراضه حالة الفرح والزهو التي كانت ترتسم عليه ، وعلى قومه ، وهم يرفلون بعطاء آل جفنة ، وهو لا يغفل عن التصريح بسعادته وعلو شأنه ومكانته ، وهو يقيم عند آل جفنة ، إذ كان يعدّ نفسه واحداً منهم .

والملاحظ في مديح حسان في هاتين القصيدتين أن الشاعر لم يتكلف في مديحه كثيراً ، بل نجده استعمل الأسلوب المباشر ، ومال إلى عقد المقارنات واستخدام فنون القول نحو التشبيه والاستعارة ، وما إلى ذلك من الفنون الأخرى التي تطرد في الشعر العربي قبل الإسلام ، وهي على العموم تعلو بالممدوح، وترفع من مكانته ، وتضعه في منزلة أعلى . وقد استطاع حسان أن يصور مشاعره تجاه ممدوحيه بصدق .

أما مديح حسان الإسلامي الذي هو بلاشك ثمرة التفاعل الحقيقي بين ما ورثه حسان من معانٍ وقيم عربية أصيلة ، وما انفتحت عليه نفسه من نور الإسلام الوضّاء ، ومبادئه السامية التي ولّدها التحول الكبير الذي طرأ على الحياة العربية ، بفضل الدين الإسلامي الحنيف ، والنور المحمدي الذي أضاء جوانب الحياة المختلفة . ومن نماذج مديح حسان الإسلامي ، قوله في مدح الرسول الكريم (ﷺ) :

أغرُّ عليهِ للنبوةِ خاتَمٌ ... من اللهِ مَشْهودٌ يَلوحُ ويُشْهَدُ
وضمَّ الإله اسمَ النبيِّ إلى اسمهِ ... إذا قالَ في الخمْسِ المؤذِّنُ أشْهدُ
وشقَّ لهُ من اسمهِ ليُجلَّهُ ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا مُحَمدُ
نبيٌّ أتانا بعْدَ يأسٍ وفتْرةٍ ... من الرُّسْلِ والأوثانُ في الأرضِ تعبدُ
فأمسى سِراجاً مُستنيراً وهادياً ... يلوحُ كما لاحَ الصقيلُ المهنَّدُ
وأنْذرنا ناراً وبشَّرَ جنَّةً ... وعلَّمَنا الإسلامَ فاللهَ نحْمَدُ(٧)

ففي هذه المقطوعة يباشر حسان مديحه للمصطفى من دون أية مقدمات ولا تمهيد ، وهي معالجة ليست جديدة في الشعر الإسلامي ، بل هي موجودة في الشعر من قبل ، حيث يدخل إلى موضوعه مباشرة . فالرسول العظيم كريم الأفعال ، مشرق الوجه ، يميزه خاتم النبوة الذي وسمه الخالق تعالى به ، وكرّمه الله تعالى ، بأن جعل ذكر اسمه يتردد مع اسم الخالق عزّ وجل في أوقات الصلاة الخمسة ، واشتق له اسمه من الحمد ، الذي هو من أسماء الله الحسنى، وقد اختص الله تعالى به نفسه ، فهو المحمود ، وكان مجيء المصطفى رحمة للعالمين ، بعد أن كانوا يتخبطون في ظلمات الوثنية والعبودية لغير الله تعالى ، فجاء هداية وخلاصاً للناس من عذاب أليم ، وبشيراً بالجنة التي وعد الله بها المتقين .

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الثناء والحمد لله رب العالمين الذي أكرمهم بالرسول (ﷺ) وبالرسالة المحمدية ، التي عمل المصطفى على ترسيخها في نفوس الناس ، فالله واحد لا شريك له ، ولا عبودية لغيره .

أن ما يميز هذه المقطوعة هي المعاني الإسلامية الجديدة التي تتمثل في التوحيد ، وفي التصديق بالرسالة المحمدية ، وهذا في حد ذاته يمثل انقلاباً نوعياً في مضمون القصيدة العربية التي كانت تخصص موضوعاتها لمدح البشر، الذين هم في الحقيقة لا يختلفون عن أبناء جنسهم ، وبذا فإن المديح قد اتخذ مساراً أكثر صدقاً ووعياً في التعبير عن صفات الممدوح ، وأصبح الشاعر يقلب المعنى أكثر من مرة ، وهو يطلق الصفات والنعوت ؛ لأن الإسلام شجع الشاعر على أن يكون صادقاً وموضوعياً .

أما من حيث البناء ، فلم يطرأ أي تغيير جذري على بناء قصيدة المديح، حيث تصبّ كل الأبيات في الغرض نفسه ، باستثناء المقطوعات ، وبعض القصائد التي وردت من دون مقدمات أو تمهيد ، بل كان الشاعر يدخل فيها إلى

المديح مباشرة ، وهي معالجات استوجبتها ظروف الشاعر ، والمواقف التي كان يجد الشاعر نفسه ملزماً فيها ، بالقول في مناسبات آنية وأحداث طارئة .

ومن نماذج مديحه الإسلامي قوله في الخليفة أبي بكر الصديق (ﷺ) ، بعد أن أثنى على الرسول (ﷺ) :

إذا تذكَّرْتَ شجوًا من أخي ثقـــةٍ　　فأذكرْ أخاكَ أبا بكرٍ بمـا فَعَـلا
التّالي الثّاني المحمُودُ شيمَتُـــهُ　　وأوّلَ الناسِ طُرّا صَدّقَ الرُّسُــلا
والثّاني اثنين في الغارِ المُنيف وقد　　طافَ العدُوُّ به إذْ صعَّـدَ الجَبَـلا
وكانَ حبَّ رسُولِ اللهِ قد علِمُــوا　　من البريّـةِ لـم يعْدِلْ به رَجُــلا
خيرُ البريَّـةِ اتقاهـا وأرأفُهـــا　　بعْدَ النبيِّ وأوفاهـا بما حَمَــلا(٨)

فسيتذكر الشاعر دور أبي بكر (ﷺ) ومواقفه المتميزة من الرسول (ﷺ) إذ كان أول من صدّق برسالته ، وموضع ثقته ، فهو يُذكّر بما فعله أبو بكر (ﷺ) من جليل الفعل ، وعظيم العمل ، ولم يبدر منه ما يشجي أو يحزن بخلاف غيره، وكان له الشرف الكبير حيث كشف له النبي (ﷺ) السر العظيم ، فعاهد الله تعالى على أن يحفظ السر ، وإن يقف إلى جانب الرسول (ﷺ) حتى آخر رمق من حياته ، وقد فعل (ﷺ) ، فهاجر مع الرسول (ﷺ) هرباً من ظلم قريش ، وكان رفيقه في الغار .

والمتأمل لهذا النموذج من مديحه ، يجده يصب في المعنى الأخلاقي والديني الذي حث الإسلام عليه ، حيث كانت معاني التقوى والصلاح والهداية والصدق في القول والعمل ، هي المعاني التي طبعت قصائد الشعراء .

وعلى العموم فإن سمة التغيير والتطور تبدو واضحة من خلال مطالعة المعاني المستوحاة من هدي العقيدة ، ووحي مبادئها . أما بناء قصيدة المديح فإنه لم يتضح لنا كلياً خاصة ، أن الإسلام قد اتخذ موقفاً متشدداً إزاء المديح والشعراء المادحين ، فضلاً عن أن معظم نماذج المديح جاءت قصيرة ومقتضبة

ليس فيها من الفن الشعري ما يميزها من غيرها ، وهي غالباً جاءت سهلة في أساليبها ، بسيطة في ألفاظها وتراكيبها ، صادقة في مشاعرها .

ثانياً- الهجاء :

وهو الغرض الثاني في هذه الدراسة ، ويعدّ نقيضاً للمديح ، وسلباً للخصائص التي يمدح بها الإنسان ، والغاية من ذلك التشهير بالمهجو وتشويه منزلته ، والحط من قدره وقيمته بين أهله وأصحابه ومجتمعه .

والمعيار في ذلك هو المعيار الأخلاقي والديني الذي ينطلق منه الشاعر الذي يمدح ، ولكن الشاعر في الهجاء يحاول سلب المهجو كل قيمة وفضيلة أخلاقية ودينية يقرها المجتمع الإسلامي ، وبهذه الكيفية تتضح خطورة الدور الذي ينهض به الهجاء .

ومن نماذج هجائه الذي قاله قبل الإسلام ، قوله في هجاء الحارث بن هشام :

يا حارِ إنْ كُنْتَ امرأً مُتَوَسّعـاً ... فافْدِ الأولى ينْصِفْنَ آلَ جَنابِ
أخواتَ أمِّكَ قد علِمتَ مكانها ... والحقُّ يفهمُهُ ذوو الألبابِ
إنَّ الفرافصةَ بن الأحوصِ عِنْدهُ ... شجنٌ لأمِّكَ من بناتِ عُقابِ
أجمعتُ أنَّكَ أنتَ الأمُ مَنْ مشى ... في فُحْشِ مومِسَةٍ وزَوْكِ غُرابِ
وكذاكَ ورّثَكَ الأوائلُ أنَّهُمْ ... ذهبوا وصرْتَ بخزيةٍ وعَذابِ
فورثْتَ والدَكَ الخيانةَ والخنا ... واللُّؤمَ عندَ تقايس الأحْسَابِ
وأبانَ لؤمُكَ أنَّ أمَّكَ لم تكُنْ ... إلاّ لشرِّ مقارفِ الأعرابِ(٩)

فمن الواضح أن الشاعر يخاطب المهجو مباشرة فيناديه (بحرف النداء) لكي يصغي إلى ما يقول ، بل يجعله مطرقاً لما سيقوله . وأول ما خاطب حسان من المهجو جانب المروءة التي يفتقدها المهجو ، ولو كان يمتلكها لوجب عليه أن يفتدي نساء قومه ، مما هنّ فيه من ذل العبودية ، ولكن كيف يتسنى له

تحقيق ذلك ؟ وأهل بيته شاع فيهن البغاء ، وذلك في قوله : (أخوات أمك قد علمت مكانها) ، ثم أن أمه وخالاته كُنّ أماء للفرافصة بن الأحوص ، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن المهجو وضيع النسب ، وأنه سليل الخزي والفاحشة ، فقومه عبيد ونساء قومه بغايا ، وهذا الأسلوب في الهجاء له وقعه المؤثر في النفس ، وهو فوق ذلك يسلب المهجو كل الفضائل والقيم الأصيلة ، بل يجعله مجرداً من أي وازع إنساني وأخلاقي يمكن أن ينشأ عليه .

ويزخر هجاء حسان الذي قاله قبل الإسلام بمثل هذه المعاني التي تناول فيها الأهل والنسب ، ومقابلة الكرم باللؤم ، والصدق بالكذب . وقد سخّر لأجل بناء هذه القصائد والمقطوعات الهجائية أساليب القول المختلفة نحو الحصر والقصر وأساليب الاستفهام والنفي والمقارنة وغير ذلك .

وحين بدأ شعراء الكفر بهجاء الرسول (ﷺ) والإسلام ، أنبرى حسان للرد عليهم ، والنيل من رموزهم ، ولاسيما بعد أن تعاظم خطرهم وامتدت سهام غدرهم إلى محاولة تعويق الرسالة ، وتعطيل دور الرسول العظيم .

وقد حظي من الهجاء بعناية خاصة من لدن رسول الله (ﷺ) أثمرت عن نمو هذا الفن وازدهاره . واتجهت معاني الهجاء إلى الجوانب السلبية التي تقابل المثل والمناقب التي كان الشعراء يبنون عليها قصائد المديح ، وهذا الأسلوب هو أهجى الأساليب ، (إذ كلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى ، كما يرى ذلك قدامة بن جعفر)[١٠] .

وكان من الطبيعي أن تكون معاني الهجاء الإسلامي مما يأنفه العربي ، وينكره المجتمع ، ولذلك جاءت مصورة للمثل الجاهلية قليلة التأثر بالمثل الدينية التي أشاعها الإسلام .

ومن نماذج هجاء حسان الإسلامي قوله في هجاء أبي سفيان بن حرب ، وهند بنت عتبة :

أشرتْ لكـاعٍ وكانَ عادتَهــا لُؤْمٌ إذا أشِرَتْ مَعَ الكُفْـرِ
لَعَنَ الإلهُ وزوجَهـا معهـا هند الهنودِ طويلـةُ البَظْـرِ
أخرجتِ مُرقصَـةً إلى أُحُـدٍ في القومِ معنقَـةً على بكْـرِ
بكْرٍ ثقالٍ لا حَـراكَ بِـه لا عنْ مُعاتبـةٍ ولا زَجْـرِ
وعصاكِ إستكِ تتقيـن بـه دقّ العجايَـةِ عاريَ الفهْـرِ
قرحَتْ عجيزتَهـا ومشرجُها مِنْ نصّها نصّاً علـى القهـرِ
ظلّتْ تُداويهـا زميلتُهـا بالمـاءِ تنْضحَهُ وبالسّـدْرِ
أقبلْـتِ زائـرةً مُبادرةً بأبيكِ وابنكِ يومَ ذي بَـدْرِ
وبعمّـكِ المسلوبِ بزّتُـهُ وأخيكِ منعفرين في الجفْـرِ
ونسيتِ فاحشةً أتيتِ بهـا يا هندُ ويحـكِ سُبّـةَ الدَّهْـرِ
فرجعتِ صاغرةً بلا تِـرَةٍ ممّا ظفـرتِ به ولا وتْـرِ
زعمَ الولائدُ أنّهـا ولَـدتْ ولداً صغيراً كان من غهـرِ[١١]

فقد حاول حسان في هذه القصيدة أن ينال من هند بنت عتبة ، ومن زوجها أبي سفيان بن حرب ، حيث بدأ القصيدة مباشرة بالهجاء ، فوصف هنداً بابشع الأوصاف ، وجعلها لئيمة وشريرة وكافرة ، ثم دعا عليها وعلى زوجها باللعنة ، مضمناً هجاءه بعض المصطلحات الإسلامية مثل (الكفر) و (لعن الله) وهي معانٍ لم يكن يستخدمها الشاعر من قبل .

ثم يواصل قوله بأنها قد خرجت في غزوة أحد مسرعة متراقصة ، تهزج بفرح ونشوة بعد أن عرفت بمقتل حمزة عم الرسول (ﷺ) ، وهي التي أثقل كأهلها ظهر البعير حتى جعله يتضجر منها ، ثم عاد الشاعر بها إلى غزوة بدر الكبرى التي قُتل فيها أخوها الوليد ، وأبوها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة وابن عمها حنظلة ، فكلهم قد اندحروا وقتلوا في تلك المعركة ، محاولاً أن يجدد آلامها وأحزانها السابقة ، وما حلّ بها بعد أن سمعت بمقتلهم جميعاً ، ليملأ قلبها حسرة وحزناً ، ويسلبها كل عوامل الفرح والنشوة التي امتلأت بها نفسها بعد غزوة أحد .

ولم يكتف بذلك بل ذكرها بفعلتها الدنيئة يوم أحد حين بقرت بطن حمزة (ﷺ) واصطلمت أذنيه ولاكت كبده . فهو يعيرها بهذا الفعل الفاحش والعار الشنيع ، كما يعيرها ببغائها ودناءتها ، وهي التي نشأت كما يقول ، وصيفة بين العرب – ولكنها باءت بالإثم وخرجت عن طوع الخلق والعقل فتحولت إلى صورة بشعة من صور الإنسانية .

وحسان في هذه القصيدة الإسلامية لا يزال يصور المهجو بما ينبذه الإسلام ، وبما يتنافى مع القيم التي جاء بها ، في تكريم قتلى الحرب بدفنهم ، ولكنّ هنداً فعلت خلاف ذلك . فالفوارق إذن واضحة وجلية بين هجاء حسان الجاهلي وهجائه الإسلامي . فهجاؤه الإسلامي ينبني على قياس الشرع الذي جاء به الإسلام ، والذي يتم به تقويم الإنسان بوصفه أفضل خلق الله ، وكل ما يتنافى مع القياس يعدّ نقيصة ، يؤاخذ بها صاحبها ويعتمدها الهجاؤون مثلبة يعرضون بصاحبها في كل مكان وزمان .

وقد برع حسان في هذا الاتجاه ، إذ كان من أبرز الشعراء المسلمين تعريضاً بالأنساب ، ونيلاً من الإحسان ، وذكراً للمثالب ، وقد شجعته على ذلك ما وجده من رعاية رسول الله (ﷺ) له ، إذ كان ينصحه بمراجعة أبي بكر (ﷺ) بقوله : (يا حسان أذهب إلى أبي بكر ، فليحدثك حديث القوم وأيامهم واحسابهم ثم أهجهم وجبريل معك)[١٢] .

وعموماً يبقى تأثير الإسلام محدوداً في هجاء حسان ، لأن المعركة التي خاضها حسان ضد الشرك استلزمت سلاحاً مؤثراً ، وكلمة نافذة ، وكان الأسلوب الجاهلي هو المؤثر في نفوس المشركين ولاسيما قبل أن يسلموا ويفقهوا مبادئ الدين الحنيف .

الهوامش :

١. الاستيعاب ٣٤٦/١ .

٢. الأغاني ١٣٦/٤ .

٣. الشعر والشعراء ٢٢٤/١ .

٤. شرح ديوان حسان بن ثابت / ٣٦٣-٣٦٦ .

٥. شرح ديوان حسان / ٣٦١ .

٦. شرح ديوان حسان / ٤٧٤-٤٧٥ .

٧. شرح ديوان حسان / ١٣٤-١٣٥ .

٨. شرح ديوان حسان / ٣٥٥-٣٥٦ .

٩. شرح ديوان حسان / ١١٥-١١٧ .

١٠. نقد الشعر / ٥٥ .

١١. شرح ديوان حسان / ٢٨٥-٢٨٧ .

١٢. العقد الفريد ١٤٥/٦ .